ابن طباطبا ووحدة القصيدة

د/ على جاد الحق سعيد
مدرس الأدب والنقد - كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

تمهيـــد :-

كان من بين النتائج التى توصلت إليها فى بحثى[1] " عن القصيـــدة ومراحـل الإبداع الفنى عند ابن طباطبا فى كتابه " عيار الشعر " أن جهود ابن طباطبا العلـوى - النقدية - لا تقف عند حد طرائق صناعة الشعر ومراحل إبداعه وتأليفه بل تخطـى أبعد من ذلك وتجاوزه . وكانت وحدة القصيدة إحدى هذه الخطى التى سارع إليـــها فى كتابه " عيار الشعر " وجهدا يضاف إلى جهوده النقدية ، وهى من القضايا التـــى لم يتعرض لها معاصروه ولم يسبقوا إليها .

وكان هذا من أسباب اختيارى لهذا البحث بالإضافة إلـــى أن الوحـدة فـى القصيدة مما يتصل ببناء القصيدة اتصالا وثيقا ، وهى من القضايا التـــى اهتـم بـها النقاد فى العصر الحديث ، ولم يغفلها النقاد القدماء خلافا لما يذهب إليه البعض مـــن النقاد المنكرين لجهود نقادنا القدماء فى هذا المضمار .

وقبل أن نتحدث عن وحدة القصيدة ومفهومها عند ابن طباطبا نعرض لوحدة العمل الأدبى فى النقد القديم عند اليونانيين على النحو التالى :-

أولا : وحدة العمل الأدبى عند اليونانيين:-

أن الحديث عن " الوحدة " وقياس الأدب بها ، حديث قديم ليس من ابتـــداع النقاد المعاصرين وإنما يرجع إلى زمن موغل فى القدم ، منذ كان هناك تفكـــير فـــى

---

[1] نشر فى مجلة الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج ، العـــدد التاســع ، ســنة ١٤١٤ هجرية ، ١٩٩٤ميلادية .

الفن الأدبى ومنذ كانت هناك محاولة للتعرف على أصوله وعناصره التى يحقق بـــها غاياته فى التأثير بالتجارب التى عبر عنها الأدباء فـــى أعمالـــهم الفنيـــة ، أو نقـــل العواطف والأفكار والمثل التى تضمنتها تلك الأعمال . [١]

كان أفلاطون أول من عرض للوحدة فى العمل الأدبى فى النقد اليونانى .

" فلقد أهمل الدارسون المعاصرون أفلاطون " ٤٢٧-٣٤٧ ق.م " الذى كـــان عالما بالموسيقى والنحو وشعر اليونان ، ولا سيما شعر هومـــيروس " كمـــا كـــان شاعرا عالما بالرياضيات وفيلسوفا - وتخطوه إلى تلميـــذه أرسـطو " ٣٨٤-٣٢٢ ق.م " وقد كان خير تلاميذ أفلاطون - فى وحدة العمل الأدبى . لقد عرض أفلاطـــون للوحدة فى خطابه فى سرعة وإيجاز على لسان سقراط " ٤٦٩-٣٩٩ ق.م " وهـــو يحاور " فايدروس " فقال : أحسب أنك توافقنى على أن كل حديث " خطاب " ، يجـــب أن يكون منظما مثل الكائن الحى له جسم خاص به ، بحيث لا يكون مبتور الرأس أو القدم ، ولكنه فى جسده وأعضائه مؤلف بحيث تحقق الصلة بين عضو وآخر ثم بيـــن الأعضاء جميعا " ونجد من النقاد والدارسين المعاصرين من ينكرون على أفلاطـــون هذا السبق فى الكشف عن الوحدة فى العمل الأدبى ويجردونه منه وينســـبونه إلـــى تلميذه أرسطو من هؤلاء النقاد المعاصرين :[٢] بدوى طبانة : إذ يقول : أما وحـــدة الفكرة " الموضوع " ومعناها أن القطعة يجب أن تؤلف كلام مرتبط الأجزاء فأن فـــى المآسى اليونانية أمثلة جليلة يستشهد بها على هذا ، وأرسطو نفسه هو خير عمـــدة فى هذا الأمر ، لأنه أول من قال صراحة وبعبارة لا تقبل الجـــدال أن الوحـــدة بـــهذا المعنى هى الركن الأساسى لا فى المأساة والمسرحيات وحدها ، بـــل وفـــى جميـــع المؤلفات الأدبية . [٣]

---

[١] قضايا النقد الأدبى ص٤٦ ، د/ بدوى طبانة ، مكتبة الانجلو المصرية .

[٢] كتاب الشعر لأرسطو ١٣ ت، رجمة د/ عبد الرحمن بدوى ، وانظر ١٦ مذاهـــب النقـــد وقضاياه .

[٣] النقد الأدبى عند اليونان ، صـــ١٠٧ ، د/ بدوى طبانة ، مكتبـــة الأنجلـــو المصريـــة ، الطبعة الأولى .

ويقول أيضا : والحديث عن الوحدة " أو الوحدة العضوية " فى النقد الأدبى يذكر بأهم الذين أثاروا هذه الفكرة فى تاريخ النقد ، وفى طليعتهم " أرسطو " الذى يشرح الفكرة فى كتاب " فن الشعر " فى معرض حديثه عن المأساة . [١]

ويقول مندور : ولعل من أكبر القواعد تأثيرا فى تاريخ المسرح قاعدة الوحدات الثلاث التى نسبت إلى "أرسطو " والقراءة الدقيقة لما كتبه أرسطو عن هذه القواعد تثبت أنه لم يجزم إلا بواحدة منها وهى وحدة الموضوع . [٢]

ويقول السيد تقى الدين : أول من نادى بهذه الفكرة هو الفيلسوف اليونانى أرسطو ودعا إلى تطبيقها فى الشعر المسرحى والقصصى .[٣]

ويقول يوسف بكار : ليس بعيد إذن أن يتلقف أرسطو الفكرة ويهذبها ويأخذ فى تطبيقها على المسرحية والملحمة حتى يعرف بها ويهمل أستاذه ، لقد فصل أرسطو الفكرة ودقق فيها تدقيقا لا يدع مجالا للالتباس .[٤]

ويؤكد أرسطو على هذه الفكرة عندما يتحدث فى كتابه " الشعر " عن الأنواع التى تعتمد على المحاكاة سواء أكانت قولا أو فعلا فإنه من الضرورى أن ترتكز المحاكاة على وحدة الحكاية أو الأسطورة أو الخرافة مما يسميه المحدثون بوحدة الحدث ، لان وحدة الحدث الذى تتناوله الأنواع يحقق الهدف الذى يتيحه العمل الشعرى إليه ، وقد قام بنقل فكرة الوحدة عند أرسطو إلى العربية " متى بن يونس " نقلا واضحا وترجمها على الشكل التالى : " وكذلك الخرافة فى العمل هى تشبيه ومحاكاة واحدة لواحد ، وهذا كله الأجزاء أيضا تقوم الأمور هكذا : حتى إذا نقل

---

(١) قضايا النقد الأدبى ، صـ٤٦ ، د/ بدوى طبانة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ت .

(٢) فى الأدب والنقد : صـ٤٦ د/ ، محمد مندور لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م .

(٣) من الوجهة الأدبية : جـ١ ، صـ٢٤٤ ، د/ السيد تقى الدين ، دار إحياء الكتب العربية ، د . ت .

(٤) بناء القصيدة فى النقد العربى القديم : صـ٢٧٧ ، د/ يوسف بكار دار الأندلس .

الإنسان جزءا ما أو رفع يفسد ويتشوش ويضطرب كله بأسره وذلك أن ما هو قريب لم يقرب لم يفعل شيئا ويبلغ أن يكون كله نحو لا شئ وهو جزء للكل نفسه . [١]

ونلخص من هذا إلى أن أول من أرسى بناء وحدة العمل الأدبى فى النقد اليونانى هو أفلاطون أستاذ أرسطو ، وأن المقصود من الوحدة فى العمل الأدبى عند النقاد اليونانيين هى الوحدة العضوية وأن يونس بن متى أول من قام بنقل فكرة الوحدة عند أرسطو إلى اللغة العربية .

ثانيا : الوحدة فى النقد العربى القديم قبل ابن طباطبا :-

وإذا كان يونس بن متى قد قام بنقل فكرة الوحدة عند أرسطو إلى العربية عن طريق ترجمة كتابه " الشعر " فأن ابن سينا قد فهمها فهما جيدا وشرحها فى تلخيصه بقوله : " فيجب أن يكون تقويم الشعر على هذه الصفة ، ويكون بحيث لو نزع منه جزء واحد فسد وأنتقص ، فأن الشىء الذى حقيقته الترتيب إذا زال عنه الترتيب لم يفعل فعله ، وذلك لأنه إنما يفعل كله ويكون الكل شيئا محفوظا بالأجزاء ولا يكون كلا عندما لا يكون الجزء الذى للكل . [٢]

ولما كان ترتيب أجزاء الكلام من مقومات الأسلوب الأساسية و وحدة العمل الفنى تقتضى إدراك الموضوع وما يتضمنه من الأفكار ، وتنظيم المعانى حتى تأتى مسلسلة منسقة ، وقد عرف العرب ذلك فى خطبهم ورسائلهم ، ولكن الشعراء القدامى لم يعنوا به فى شعرهم إلى أن جاء العصر العباسى " فاهتم الشعراء والنقاد بالبدء وبالانتقال منه إلى الغرض ثم بالخاتمة لأنها المواقف التى تستعطف الأسماع وتستميل الحاضرين إلى الإصغاء " [٣] .

---

[١] كتاب أرسطوطاليس فى الشعر : صـ٦٣ : ٦٥ ، ترجمة متى – تحقيق شكرى عياد ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٧ .

[٢] الشفاء : صـ٥٣ ، ٥٤ ، لابن سينا ، تحقيق د/ عبد الرحمن بدوى ، ط١٩٤٦ .

[٣] الوساطة : صـ٤٤ ، للقاضى الجرجانى – تحقيق هاشم الشاذلى ، دار إحياء الكتب العربية ، انظر فى النقد الأدبى عند العرب ، صـ٢٣٥ ، محمد طاهر درويش ، مكتبة الشباب .

وعندما نطالع التراث النقدى عند العرب نجد النصوص العديدة التى تتحدث عن ترابط القصيدة ، وقوة تأليفها ، وتلاحم أجزائها ، واتصال أفكارها مما يجعل القارئ يشعر شعورا قويا بوعى النقاد بضرورة مراعاة الوحدة فى بناء القصيدة .

وكانت وحدة القصيدة – عندهم – تتمثل فى الوحدة البنائية التى تقوم على قوة السبك وشدة التلاحم ، وحسن التأليف اللفظى بين الأبيات ، بحيث يكون هناك ارتباط بنائى قوى تصير به القصيدة ، كأنها أفرغت إفراغا واحدا .

يقول الجاحظ فى هذا المعنى : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فيعلم لذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا ، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد " [١] .

ومقولة الجاحظ تعكس اهتماما بقوة الصياغة اللغوية فى القصيدة والكلمة ، فالعمل الشعرى بناء محكم متكامل لبناته الكلمات والأبيات ، وبناء على هذا الفهم ، فان وحدة القصيدة تبدأ منذ البداية ، وتنمو فى سياقها اللغوى من خلال الكلمات والأبيات حتى النهاية التى تأتى نتيجة طبيعية لما سبقها من مقدمات شعورية وفكرية" [٢] .

وكان اهتمام الجاحظ بقوة الصياغة اللغوية فى القصيدة والتلاحم بين أجزاء القصيدة حافزا لمن جاء بعده من النقاد بأن تكون الصياغة الجيدة والملائمة بين شطرى البيت ومشاكلة البيت الذى يليه ، وارتباط أفكار القصيدة ، فلا حشو يفسد المعنى ، ويعرقل انطلاق الأفكار حتى يتوفر للقصيدة الموحدة مستوى فنى جيد .

وحرص النقاد على إيجاد هذا المستوى الفنى لوحدة القصيدة تظهره تلك الروايات التى تعيب على أصحابها أقوالهم :-

---

[١] البيان والتبين : جـ١ ، صـ ٦٧ للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

[٢] نظرية الشعر فى النقد العربى القديم : صـ٢١٢ ،د/ عبد الفتاح عثمان ،مكتبة الشباب .

قال سحيم بن حفص : قالت بنت الحطئية للحطئية : " تركت قوما كراما ونزلت فى بنى كليب بعر الكبش " فعابتهم بتفرق بيوتهم فقيل لهم أنشدونا بعض ملا تتباين ألفاظه ، ولا تتنافر أجزاؤه فقالوا : قال الثقفى :- [١]

من كان ذا عضد يدرك ظلامته ... ان الذليل ليست له عضد
تنبو يداه إذا ما قل ناصره ... ويأنف الضيم أن أثرى له عدد

وقال عبد بن سالم لرؤبة : مت يا أبا الجحاف إذا شئت فقال رؤبة ، وكيف ذلك ؟ قال : رأيت أبنك عقبة ينشد شعرا له أعجبنى ، قال رؤبة : نعم ، ولكن ليس لشعره قران يريد أنه لا يقارن البيت بشبهه " [٢]

وأكد هذا ابن قتبة بقوله: وتتبين التكلف فى الشعر أيضا بأن ترى البيت فيبه مقرونا بغير جاره ومضموما إلى غير لفقه ، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء : أنا أشعر منك قال : وبم ذلك ؟ فقال لأنى أقول البيت وأخاه ، ولأنك تقول البيت وابنه عمه ، [٣]

كما حرص النقاد على تناسب شطرى البين فقد روى أن " أبا العتاهية " أنشد فى رثاء الخليفة : مات الخليفة أيها الثقلان ..

فرفع الناس رؤوسهم وفتحوا عيونهم ، وقالوا : نعاه إلى الجن والأنس ، ثم أدركه اللين والفترة فقال : فكأننى أفطرت فى رمضان .

وتكشف أقوال هذه الروايات على مدى حرص النقاد قبل ابن طباطبا على التلاحم بين أجزاء القصيدة وقوة الارتباط الذى يسمح باتصال الفكرة وبنموها ، وهو ما أطلقوا عليه " مصطلح القران [٤]" وعدم الالتزام بالقرآن دليل على نقص

---

(١) البيان والتباين : جـ١ ، صـ٦٧ .
(٢) الشعر والشعراء : جـ١ ، صـ٩٠ لابن قتيبة ، تحقيق / أحمد شاكر ، دار المعارف .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) القران : مقارنة البيت بشبهه وهو بالكسر والضم والهمز والصحيح الكسر وترك الهمزة فيقال قران .

الشاعرية إذا تم البيت ولم يتم بتمامه المعنى واحتاج إلى بيت آخر يكون بـــه هـــذا التمام سمى ذلك " تضمينا " وهذا التضمين معيب عندهم كقول الشاعر :

كـــأن القلـــب ليلـــة قيـــل يغـــدى بليلـــــى العامريـــــــة أو يـــــراح
قطـــاة عرهـــا شـــــرك فبـــــاتت تجاذبـــه وقـــد علـــق الجنـــــاح [١]

ويكون هذا التضمين أشد عيبا إذا تعلقت القافية أو لفظة قريبة منها بـــالبيت التـــالى كقول النابغة :

وهم وردوا الجفـــار علـــى تميـــم وهـــم أصحـــاب يـــــوم عكاظـــــانى
شهدت لـــــهم مواطـــن صالحـــات وثقـــن بحســـن الظـــــن منـــــى [٢]

وليس معنى اهتمام نقاد العرب بوحدة البيت واستقلاله بنفسه أن الشعراء أو النقاد أغفلوا العناية بوحدة القصيدة ، أو أهملوا أمر هذه الوحدة . [٣]

" صفوة القول إذن أن النقاد أدركوا من أمر " الوحدة " مالا يجاوز معنـــى " القران " بين أجزاء ، إلى معنى التعبير عن " جزء " واحد . [٤]

ومن ثم فقد رأى نقاد العرب قبل ابن طباطبا أن ترتبط أبيات القصيدة بعضها ببعض حتى يتكون منها عمل فنى سليم ، وما شاع على الألسنة ورده كثـــير مـــن المستشرقين من اتهام القصيدة العربية بخلوها من صفة الوحدة الفنية ، ولعل ســـر ذلك الاتهام هو أنهم يرون القصيدة العربية كثيرا ما تشتمل على غير غرض واحـــد ، فيرون قصيدة المدح مثلا يبدؤها الشاعر غالبا بالغزل ، وقد يضع فى أثنائها الحكمـــة او الوصف ، كما يكون ذلك فى الهجاء أيضا والرثاء ، وقد يكون منشؤه أيضا شـــدة عناية العرب بالحديث عن وحدة البيت حتى طغى ذلك علـــى الحديـــث عـــن وحـــدة

---

[١] الصناعتين : صـــ٣٥ ، لأبى هلال العسكرى .
[٢] العمدة : جـــ١ ، صـــ ١١٣ ، لابن رشيق .
[٣] أسس النقد الأدبى عند العرب : صـــ٣١٩ ، د/ أحمد أحمد بدوى – دار نهضة مصر .
[٤] نظرية النقد الأدبى : صـــ١٧٦ ، د/ عصام قصبجى ، دار القلم العربى .

القصيدة ، فظن أن العرب لم ينتبهوا إلى هذه الوحدة ، وأن القصيدة العربية مكونة من أمشاج ممزقة . [١]

يقول مستر جب : " وأن الخلق الفنى لدى العرب سلسة من بواعث منفصلة ، كل منها تام ومستقل بنفسه ، لا يربط بينها غاية أو انسجام أو إتقان ، اللهم إلا وحدة العقل الذى أبدعها . [٢]

هذا الاتهام للقصيدة العربية ولنقاد العرب فيه ظلم بالغ ، وحيف كبير ، لان القصيدة العربية إذا كانت فى كثير من الأحيان تتكون من أغراض عدة كالغزل والمدح والحكمة والوصف ، فليس ذلك بموجب أن تتفكك الوحدة ، أو تصبح القصيدة أخلاطا . [٣]

وما دعا إليها الجاحظ وابن قتيبة من وصل الأفكار الجزئية بعضها ببعض فى البيت الواحد أو الأبيات المتصلة ، عما يؤلف صورة جزئية مفردة يعد خطوة أولى على الدرب الذى سار فيه ابن طباطبا فى دعوته إلى وحدة القصيدة .

ثالثا : مفهوم وحدة القصيدة عند ابن طباطبا :-

من المعايير النقدية التى وضعها ابن طباطبا وجعلها ميزانا للتفاضل بين الشعراء وحدة القصيدة ، فكأن الشعر بذلك علم موضوعى له قوانينه التى تحدد طبيعته وطرقه التى تحدد قيمته ، وينبئ عن ذلك كله تسمية كتابه " بعيار الشعر " .

إذن فالمقصود وحدة القصيدة ؟ المقصود بوحدة القصيدة : وحدة موضوعها ، ووحدة المشاعر التى يثيرها هذا الموضوع ، وما يتبع ذلك من ترتيب الصور والأفكار ، بحيث تتجه القصيدة إلى الغاية التى يستلزمها هذا الترتيب ، وبهذا تكون القصيدة كالكائن الحى ، لكل جزء وظيفته فيه وعن طريق التسلسل فى التفكير

---

[١] أسس النقد الأدبى عند العرب : صـ ٣٢٠ ، د/ أحمد أحمد بدوى ، دار نهضة مصر .

[٢] رأى الأستاذ جب : راجع النابغة الذبيانى ، صـ ٥٣ ، عمر الدسوقى : مطبعة نهضة مصر ، وانظر المرجع السابق ، صـ ٣٢٠ .

[٣] أسس النقد الأدبى عند العرب : صـ ٣٢٠ .

وفى المشاعر تتصل بالأجزاء بعضها ببعض ، وهذا يستلزم ان يفكر الشاعر طويلا فى موضوع قصيدته ، وفى منهجها وفى الأثر الذى يتركه فى جمهوره ، وفى الأجزاء التى تتعاون فى أحداث هذا الأثر متمشية مع البناء الكلى للقصيدة ، وفى الأفكار والصور التى يشتمل عليها كل جزء ، ملاحظا فى ذلك التتابع المنطقى ، وتسلسل الأفكار والأحداث ووحدة الطابع ، وهذه الدراسة قبل الشروع فى نظم القصيدة تعين على ابتكار الأفكار والصور . [1] وبالنظر إلى هذا المفهوم نجده لا يخرج عما نص عليه ابن طباطبا فى كتابه " عيار الشعر " فيقول ينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره ، وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه ، فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ، ويتصل كلامه فيها ، ولا يجعل ما قد أبتدأ وصفه وبين- تمامة فصلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه ، فينسى السامع المعنى الذى يسوق القول إليه ، كما أنه يحترز من ذلك فى كل بيت ، فلا يباعد كلمة عن أختها ، ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو ، ويتفقد كل مصراع ، هل يشاكله ما قبله ؟ فربما اتفق للشاعر بيتان يصنع مصراع كل واحد منهما فى موضع الآخر ، فلا ينتبه على ذلك إلا من دق نظره ولطف فهمه وربما وقع الخلل فى الشعر الرواة والناقلين له فيسمعون الشعر على جهة ويؤدونه على غيرها سهوا ، ولا يتذكرون حقيقة ما سمعه منه كقول امرئ القيس :-

كأنى لم أركب جواد للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبا الزق الروى ولم اقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال

فيرى ابن طباطبا أن قول امرئ القيس لا يتناسب فيه مصراعا البيتين ، فهما بيتان حسنان ، ولو وضع مصراع كل واحد منهما فى موضع الآخر ، كان أشكل وأدخل فى استواء النسج ، فكأن يروى

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبا الزق الروى للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال [2]

---

[1] فى النقد الأدبى عند العرب : صـ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، د/ محمد درويش ، مكتبة الشباب .

[2] عيار الشعر : صـ٢٠٩ ، لابن طباطبا ، تحقيق عبد العزيز المانع .

إن هذا يظهر الحرص علي تفقد مصاريح الأبيات لمعرفة التناسب اللفظى والمعنوى ، الذى ينبغى أن يسود فى البيت الواحد ، ولهذا كان المطبوع من الشعراء عند ابن قتيبة هو " من سمح بالشعر " ، واقتدر على القوافى وأراك فى صدر بيته عجزه ، وفى فاتحته قافيته " [١]

وما نص عليه ابن طباطبا فى كتابه " عيار الشعر " عن وحدة القصيدة اختلف النقاد المحدثون فى تفسيره هل يعنى الوحدة العضوية أو الوحدة الموضوعية؟

وقيل الجواب عن هذا السؤال : نوضح الفرق بين الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية :-

الوحدة العضوية : لقد تعددت أسماؤها عند نقادنا ، فهى " شعرية " أو فنية و " داخلية " و " عضوية " لما كان مفهوم الوحدة العضوية دقيقا جدا لم يكن غريبا أن يخلط كثيرون من المحدثين بينها .

وبين الوحدة الموضوعية أو بينها وبين الوحدة المنطقية خلطا ينبئ عن عدم فهم لها ، مما جنح بهم إلى التعسف فى كثير من أحكامهم على شعرنا القديم ونقادنا القدامى حتى كان حقا أن يقال : " فإن الكثير لا يفهمون هذا المقصود فيظنون أن مدلولها – أى الوحدة – هو اقتصار القصيدة على تجربة واحدة أو عاطفة واحدة ولكن الوحدة المطلوبة لا تحجز الشاعر عن تعدد التجارب والعواطف فى قصيدته ، إنما يشترط أن تكون جميعها متجانسة المغزى هادفة بتعددها إلى استجلاء وحدة فى الوجود أوفى موقف النفس البشرية منه . [٢]

وأن يقال : " فليس معنى هذه الوحدة – كما اعتقد بعض من تناولوها – أن تحتوى القصيدة على موضوع واحد لكن معناها أن يكون بين موضوعاتها انسجام

---

[١] الشعر و الشعراء ، جـ ١ ، ص٩٠

[٢] قضية الشعر الجديد صـ١١٧ د/ محمد النويهى وانظر بناء القصيدة فى النقد العربى القديم صـ٢٨١ .

فى العاطفة المسيطرة وفى الاتجاه المركزى نحو حقائق الكون وتجارب الحياة ، والشاعر يحقق هذه الوحدة فى بنائه لقصيدته بأن يرتب موضوعاتها ترتيبا يقوم على النمو المطرد ، بحيث ينشأ أحدها من سابقة نشوءا عضويا مقنعا ويقود إلى لاحقه بنفس الطريقة ، وبحيث تتكامل أجزاء القصيدة فى توضيح عاطفتها المسيطرة واتجاهها المركزى ، حق إذا قرأنا القصيدة ازددنا بالتدريج دخولا فى عاطفتها ويصرا باتجاهها فتركت علينا فى النهاية أثرا فنيا موحدا متكاملا لم نشعر فيه بخلل أو تناقض أو انتكاس من الشعر عن اتجاهه الذى كان يتخذه . [١]

هذا المفهوم للوحدة الفنية فى أثرها الجمالى الذى تتركه القصيدة على القارئ وما يقوم عليه من وحدة عضوية يتحقق فى ظل أمرين : وحدة الغاية أو الهدف من نظمها ، ووحدة الباعث أو الدافع الذى يدفع الشاعر لنظم القصيدة . [٢]

والوحدة ، فيما يراها ناقد آخر متأثر بريتشاردز ، ليست وحدة بنائية مثلما هى الحال فى المقال الفلسفى والعلمى ، بل وحدة عضوية حية لأن القصيدة الجيدة كائن حى وليست بناء جامدا مهما كان يرتبط الجذر والساق والأغصان والأوراق فيؤدى كل عنصر وظيفته غير منفصلة عن وظيفة عنصر آخر ، بحيث تسير الوظائف جميعها فى اتجاه واحد وتؤدى إلى غاية واحدة هى الأثر الكلى الواحد الذى تولده القصيدة فى نفس القارئ . [٣]

وهكذا يلتقى محمد النويهى ومصطفى بدوى فى مفهوم الوحدة العضوية وما ينتج عنها من أثر فنى جمالى ولا يختلف عنهما غنيمى هلال الذى يرى أن الوحدة العضوية هى وحدة المشاعر التى يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا به تتقدم القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهى إلى خاتمة يستلزمها

---

[١] الشعر الجاهلى : جـ٢ ، صـ٤٣٦ .

[٢] بناء القصيدة : صـ٢٨١ .

[٣] دراسات فى الشعر والمسرح : صـ٦-٧ ، د/ مصطفى بدوى ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، ١٩٦٠م .

ترتيب الأفكار والصور ، على أن تكون القصيدة كالبنية الحية ، ولكل جزء وظيفته فيها ، ويؤدى بعضها إلى البعض عن طريق التسلسل فى التفكير والمشاعر [٤]

هذا المفهوم للوحدة العضوية استمده النقاد المحدثون من النقد الأجنبى ، وهؤلاء هم النقاد الذين عرفوه ونقلوه نقلا واعيا إلى نقدنا الحديث .

ولا يعنى نقل هذا المفهوم لوحدة القصيدة عن النقد الأجنبى ومعرفة نقادنا له عن طريقه خلو النقد القديم من الحديث عن هذه الوحدة بمفهومها الحديث وعدم تعرض النقاد القدامى له .

ولو أمعن النقاد المحدثون النظر فى تراثنا النقدى القديم لأدركوا حقيقة هذه الوحدة كما التمسوها فى النقد الأجنبى وتعرفوا على جهود نقادنا القدامى .

ونظرا لتأثرهم بالثقافة الأجنبية ، وعدم الاطلاع الكافى على تراثنا النقدى والقراءة المتأنية له جعلهم يتعجلون فى حكمهم على النقد القديم ، وغبن النقاد جهودهم فى هذا الميدان ولذا نجد من اخذ بحظ وافر من هذا التراث لا يبخس النقاد القدامى حقهم فى كثير من القضايا والمفاهيم النقدية الحديثة التى تعرضوا لها بما يتفق وروح العصر الذى كانوا فيه ومن ثم كان اختلاف النقاد والمحدثين على النقد القديم باختلاف زادهم الثقافى .

ومما يؤكد صحة ما نقول اختلافهم حول نوع وحدة القصيدة عند ابن طباطبا هل هى وحدة موضوعية أو عضوية ؟

أما الوحدة الموضوعية : وهى التى يدور الكلام فيها حول موضوع واحد معين أيا كان نوعه إنسانا أو غيره .[١]

وبعد الوقوف على مفهوم الوحدة الموضوعية والعضوية فى النقد الحديث نتعرف على وحدة القصيدة وأهم مظاهرها عند ابن طباطبا العلوى ولا يتضح ذلك إلا

---

[٤] النقد الأدبى الحديث صـ٤٠١ د/ غنيمى هلال

(١) بناء القصيدة صـ٢٨٠

من خلال النصوص النقدية التى نص عليها فى كتابه " عيار الشعر " ومعرفة ما تحويه من مضامين فى ثناياها تكشف عن مفهوم وحدة القصيدة عنده ونتعرف على نوع الوحدة التى قصد إليها وأية وحدة كان يريد ؟

رابعا : مظاهر وحدة القصيدة عند ابن طباطبا :-

والواقع أن وحدة القصيدة لها قصة طويلة فى أدبنا العربى قديمة وحديثة ، كما أن مفهومها قد ظل غامضا لزمن طويل ، إذا نلاحظك أنه قد قصد بها أحيانا كثيرة فى نقدنا الحديث إلى وحدة " الغرض " وذلك لأن القصيدة العربية القديمة ، إذ كانت عند ظهورها التلقائى قد تمتعت بلا شك بوحدة الغرض ، إذا كان الشاعر يقول القصيدة أو المقطوعة لساعته فى الأمر الذى يشغله . (١)

وكثير من القصائد العربية فى الشعر القديم قد توفرت له وحدة الغرض على نحو ما نشاهد مثلا فى غزليات العذريين ، بل الغزل الحسى أيضا عند جميل والمجنون ، ابن ذريح وكثير وعمر بن أبى ربيعة وكثير غيرهم . (٢)

تطلعنا عند ابن طباطبا نصوص عديدة فى كتابه " عيار الشعر " تتحدث عن ترابط القصيدة وقوة تأليفها ، وتلاحم أجزائها ، واتصال أفكارها ، وتدعو إلى تأليف الشعر ونظمه ، مما يجعل القارئ يشهر شعورا قويا بجهوده المخلصة فى الدعوة إلى وحدة القصيدة ومن مظاهر هذه الوحدة :-

أ- اهتمامه بالبناء الفنى للقصيدة بحيث تكون كأنها كلمة واحدة تتحد أجزاؤه وتترابط أفكاره بقول ابن طباطبا : ينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ، ويتصل كلامه فيها . (٣) ويقول أيضا : يجب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة

---

(١) النقد والنقاد المعاصرون : صـ١٠٣ ، د/ محمد مندور ونهضة مصر .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) عيار الشعر : صـ٢٠٩ ، لابن طباطبا .

فى اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف . [١]

ب- حرصه على شدة الملائمة بين أبيات القصيدة لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها ، يقول ابن طباطبا : وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله ، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها . [٢]

جـ - تأكيده على أن يكون ابتداء القصيدة موافقا لمضمونها ، وأن تكون أجزاؤها فاعلة فلا يوجد حشو يفسد المعنى ، ويعرقل انطلاق الابتكار ولذلك يقول : ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه فينسى السامع المعنى الذى يسوق القول إليه . [٣]

د- أن تكون القصيدة خالية من " الحشو " الذى يفسد المعنى أو يعيب الأسلوب بالركود أو الرتابة يقول ابن طباطبا : ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها ، ويتفقد كل مصراع هل يشاكل ما قبله فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما فى موضع الآخر ، فلا يتنبه على ذلك إلا من دق نظره ولطف فهمه وربما وقع الخلل فى الشعر من جهة الرواة والناقلين له فيسمعون الشعر على جهته ، يؤدونه على غيرها سهوا ، ولا يتذكرون حقيقة ما سمعوه كقول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جواد للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم اسبا الزق الروى ولم أقل لخيلى : كرى كرة بعد إجفال

هكذا الرواية وهما بيتان حسنان ، ولو وضع مصراع كل واحد منهما فى موضع الآخر كان أشكل وأدخل فى استواء النسخ فكان يروى :

---

[١] المرجع السابق ص٢١٣ .
[٢] المصدر السابق صـ٢٠٩
[٣] المصدر نفسه .

كأنى لم أركب جـــوادا ولـــم اقـــل لخيلـــى كـــرى كـــرة بعـــــد إجفـــــال
ولم أســـبا الـــزق الـــروى للـــذة ولـــم أتبطـــن كاعبـــا ذات خلخـــــال [١]

ويطالع ابن طباطبا الشعر العربى فيبحث عن الأبيات المختلفـــة المصـــاريع فيذكر أمثلة لطرفة والأعشى أبى بصير من العصر الجاهلى ويذكر أمثلة لابن هرمـــة والفرزدق من العصر الإسلامى [٢] .

فيذكر لطرفة قوله :

ولســـت بحـــلال التـــلاع مخافـــةٍ ولكـــن متـــى يســـترفد القـــوم أرفـــد

فالمصراع الثانى غير مشاكل للأول .

ويذكر الأعشى قوله :

وأن امرء أهـــداك بينـــى وبينـــه فيـــاف تنوفـــات وبـــــهماء خيفـــق

لمحقوقة أن تستجيبى لصوته : وأن تعلمى ان المعان موفق

فقوله : وأن تعلمى أن المعان موفق ، غير مشاكل لما قبله

هـــ- دعوته إلى الاهتمام بمطلع القصيدة مظهر من مظاهر وحدة القصيدة يقول ابـــن طباطبا وينبغى للشاعر أن يحترز فى أشعاره ومفتتح أقواله ممـــــا يتطـــير أو يستجفى من الكلام والمخاطبات كذكر البكاء ، ووصف إقفار الديـــار وتشـــتت الآلاف ، ونعى الشباب ، وذم الزمان ، لاسيما فى القصائد التى تضمن المدائح أو التهانى ، ويستعمل هذه المعانى فى المراثى ووصف الخطوب الحادثـــة وأن

---

[١] عيار الشعر : صـــ٢٠٩ ، ٢١٠ .

[٢] المصدر السابق : صـــ٢١١، ٢١٢ .

كان يعلم ان الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح فيتجنب مثل ابتداء قـــول الأعشى :

مـــا بكـــــاء الكبـــير بـــــالأطلال وســـؤالى وهـــل تـــرد ســـــؤالى
دمنـــة قفـــرة تعاورهـــا الصيـــــف بريحيـــن مـــن صبـــا وشـــــمال

وهذا المطلع غير ملائم لأن القصيدة فى مدح الأسود بن المنذر اللخمى :

واهتمامه بمطلع القصيدة : منبثق عن إدراك كلى لوحدة القصيدة التى يمثـــل المطلع غرتها وعنوانها فقيمة المطلع تتجلى فى أنه أول ما يواجه السامع من كـــلام القصيدة ويمهد فى الوقت نفسه لموضوع القصيدة .

و- دعوته أيضا إلى حسن التخلص ، فإذا كان ارتباط مطلع القصيـــدة بموضوعـــها يؤدى دورا مهما فى وحدة القصيدة ، فإن الدعوة إلى حسن التخلص من غـــرض إلى غرض يقصد من ورائه الحرص على هذه الوحدة واســـتمرارها دون فجـــوة شعورية أو قفزة فكرية ، ودعوة صريحة إلى اتصال الأفكار وتجانس المشـــاعر ، والتحام الخواطر يقول ابن طباطبا : فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل فيحتـــاج الشاعر أن يصل كلامه – على تصرفه فى فنونه – صلة لطيفـــة فيتخلـــص مـــن الغزل إلى المديح ومن المديح إلى الشكوى ، ومن الشكوى إلى الاستماحة ومـــن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافى والنوق ، بألطف تخلص واحسن حكايـــة بلا انفصال للمعنى الثانى عما قبله ، بل يكون متصلا به وممتزجا معه . [١]

ويسوق ابن طباطبا أمثلة تخلص بها قائلوها إلى المعانى التى أرادوها مـــن مديح ، أو هجاء أو افتخار وغير ذلك كقول الأعشى :

إلى هوذة الوهاب أزجـــى مطيتـــى أرجى عطاء صالحا من نوالكـــا [٢]

---

[١] المصدر السابق : صـــ٩ .

[٢] المصدر السابق : صـــ١٨٤.

وهذه المظاهر تؤكد على حرص ابن طباطبا العلوى على وحـــدة القصيـدة ونموها وفاعلية أجزائها ، وتأزر هذه الأجزاء فى خدمة المعنى .

ولم تقف جهود النقاد المحدثين عند هذا الحد بالتأكيد على وحـدة القصيـدة عند ابن طباطبا العلوى وذلك لتوافر النصوص النقدية الدالـة علـى تحققـها التـى يضمها كتابة " عيار الشعر " بل ذهبوا أبعد من ذلك فى تفسير هذه النصوص وتحديد نوع الوحدة عند ابن طباطبا على مذاهب متعددة .

أولا : ذهب فريق فى تفسيره بان هذه الوحدة وحدة عضوية ومن القـائلين بـهذا القول شوقى ضيف – إذ نراه يعقب على قول ابن قول طباطبا الـذى يقـول فيه – أحسن الشعر ما تنتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع أخره علـى ما ينسقه قائله ، فإذا قدم بيت على بيت دخله الخلل كمـا يدخـل الرسـائل والخطب إذا نقص تآلفها – بل يجب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة فـى اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحسنا وفصاحة وجزالـة ألفـاظ ودقـة معـان وصواب تأليف .. حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا كالأشـعار التـى استشهدنا بها فى الجودة والحسن واستواء النظم ، لا تناقض فـى معانيـها ولا وهى فى مبانيها ولا تكلف فى نسجها تقتضى كل كلمة ما بعدها متعلقـا بها مفتقرا إليها . [١]

يقول شوقى ضيف بعد استعراضه لهذا النص وكأن ابن طباطبا تنبه فى دقـة إلى ما ردده – ولا يزال يردده – النقاد فى عصرنا من فكرة الوحدة العضويـة فـى القصيدة ، بحيث تصبح عملا محكما إحكاما ، فلا تخلخل بين المعانى المتعاقبـة ، ولا ممرات ولا خنادق تفصل بينها ، إنما انتظام واتساق والتحام ، حتى تصبح القصيـدة كأنها كلمة واحدة ومعنى واحد ولعل من الغريب حقا أن أصحاب النقد والبلاغة بعـد ابن طباطبا لم يتوسعوا فى هذا الموضوع [٢]

---

[١] عيار الشعر : صـ٢١٣ ، لابن طباطبا .

[٢] البلاغة تطور وتاريخ : صـ١١٣ ، د/ شوقى ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة .

وممن يرون هذا الرأى أحمد بدوى إذ يقول فى معرض حديثه عن أراء ابن طباطبا النقدية بدعوته إلى وحدة القصيدة " وإذا كان ابن طباطبا قد دعا إلى ان يضع الشاعر بين أبياته ما يربط بين هذه الأبيات حتى تتسق القصيدة ، فلذلك لأنه دعا إلى وحدة القصيدة دعوة جادة ، وهو فى ذلك يشبه آراء النقاد المحدثين إذ يقول : وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره . [١]

بينما نجد بدوى طبانه يطلق على وحدة العمل الأدبى أو وحدة القصيدة التى قررها ابن طباطبا فى كثير من نصوص كتابه " عيار الشعر " وسماها نقاد العرب القدامى بالتحام أجزاء القول – عدة أسماء فهى عنده تسمى وحدة العمل أو الوحدة العضوية " أو الوحدة الشعرية أو الوحدة الفنية " فيقول : ولعل من أقدم ما أثر عن النقاد العرب وأكثره صراحة ووضوحا فى النظرة الكلية للشعر وفى ضرورة مراعاة الوحدة والتجانس بين أبيات القصيدة ما قاله ناقد كبير معدود فى طليعة النقاد العرب وهو ابن طباطبا العلوى (٣٢٢هـ) فى كتابه عيار الشعر " [٢]

ثم يقول وهكذا نرى التقاء الأفكار حول موضوع الوحدة فى العمل الشعرى وضرورة الترابط بين أجزائه ونستطيع أن نضيف إلى رأى ابن طباطبا فى وحدة العمل الشعرى – رأى ناقد عربى آخر من علماء الأدب فى القرن الرابع وهو الحاتمى (ت٣٨٨ هـ) الذى شبه القصيدة فى مجموعها بجسد الإنسان فقال – إن مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض [٣] وفى هذا الكلام إشاده إلى أن الوحدة الفنية موجودة . [٤]

---

[١] من النقد والأدب : المجموعة الخامسة ، صـ١٤٨ ، د/ أحمد أحمد بدوى ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٥م .

[٢] قضايا النقد الأدبى : صـ٥٢٤ ، بدوى طبانة .

[٣] المرجع السابق : صـ٢٧ .

[٤] زهر الآداب : جـ٣ ، صـ٧ ، للحصرى .

والحديث عن الوحدة أو " الوحدة العضوية " فى النقد الأدبى يذكر بـأهم الذيـن أثاروا هذه الفكرة فى تاريخ النقد [١] .

وبعد أن يستعرض طبانة – كلام ابن طباطبا وينقل منه نصوصا فى حديثـه عن وحدة القصيدة ويقف عليها يقول – ويستفاد من هذا القول :-

النص الصريح على أن القصيدة كلها ينبغى أن تكون كالكلمة الواحـدة فـى تشابه أجزائها من حيث مشاكلة الألفاظ ووحدة المعانى .

– التحذير من الحشو بين أجزاء العمل الشعرى ، أو إدخال معان ليست من جنـس ما أخذ الشاعر فيه ، حتى يستمر السامع فى متابعة التجربة التى أراد الشـاعر التعبير عنها فى قصيدته .

– أن أجود الشعر ما كان متلاحم الأجزاء بحيث إذا قدم جـزء مـن أجزائـه عـن موضعه الطبيعى اختل نسقه ، واضطرب معناه .

– أن الشاعر إذا اضطر على الاستطراد أو الخروج من الموضوع الذى أخذ فيـه ، عليه أن يحسن التخلص أو الخروج بلطف ، حتى لا يحـث القـارئ أو الجـامع بذلك الخروج ، ولتبدو أمامه القصيدة وكأنها أفرغت إفراغا واحدا [٢] ثم يعلـق بعد ذلك بقوله :

وما أقرب كلام ابن طباطبا فى هذا الموضوع من قول العقاد " إن القصيـدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما ، يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطـر متجانسـة كمـا يكمل التمثال بأعضائه ، والصور بأجزائها ، واللحن بأنغامـه ، بحيـث إذا اختلـف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . [٣]

---

[١] قضايا النقد الأدبى : صـ٢٧ ، المرجع السابق ، صـ٤٦ .

[٢] المرجع السابق : صـ٢٥ وما بعدها .

[٣] الديوان : جـ٢ ، صـ٤٧ ، للعقاد .

ثانيا : من النقاد من يفسر هذه الوحدة بوحدة العمل " الموضوع " الأدبى كما فسرها بدوى طبانة فى بعض أقواله ومن هؤلاء النقاد كامل السوافيرى يقول : أن النقد العربى قد عرف العمل الأدبى على ان النقاد العرب قد فطنوا إلى هذه الوحدة . [١]

ويذكر من بين نقاد العرب الذين فطنوا إلى هذه الوحدة ابن طباطبا وينقل عنه قوله :

" واحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه صاحبه فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما ينقل عن الحاتمى تشبيهه القصيدة بالإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ولا يقر ما ذهب إليه النقاد المحدثون فى إطلاق اسم الوحدة العضوية على وحدة العمل الأدبى للأسباب الآتية :

١) أن هذه الوحدة إنما يصدق تطبيقها على الشعر القصصى والمسرحى وهى الوحدة الموضوعية التى تقتضى تتابع أجزاء الحدث وبناء بعضها على بعض .

٢) أن أرسطو عندما تحدث عن الوحدة فى العمل الأدبى كان حديثه عنها فى معرض حديثه عن المأساة حيث أن الفعل التام فى نظره ما له بداية ووسط ونهاية .

٣) أن هذه الوحدة قائمة على المحاكاة لأنها محاكاة فعل وتصدق وتطبق فى كل عمل " درامى " ملحمة كان أم قصة أو مسرحية .

٤) أن أرسطو لم يتحدث عن الشعر الغنائى ، وما دام لم يتحدث عنه فلا يمكن أن يطبق عليه مبدأ الوحدة العضوية لأنه ليس عملا " دراميا " وليس ملحمة ولا

---

[١] دراسات فى النقد الدبى : صـ١٥٦ ، دكتور كامل الوافيرى – مكتبة الوعى العربى ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م .

قصة ولا مسرحية ولذلك نرى من الصعوبة بمكان تطبيق مبدأ الوحدة العضوية على الشعر الغنائى فى العصور السابقة أو فى العصر الحديث ثانيا .[١]

ولا يكتفى السوافيرى بهذا القول ، بل نراه ينقل نصوصا عديدة من كتاب " عيار الشعر " ويردفها بنص (الحاتمى) عن وحدة القصيدة . [٢] .

ويقول : ولعل فى هذين النصيين ما يؤكد نظرة النقاد العرب إلى أهمية وحدة العمل الأدبى فى الشعر والنثر ، ويرد على من يزعمون ان النقد الأدبى عند العرب قاصر لا يعنى إلا بالجزئيات وأنه كان لا يتجاوز البيت لأن وحدته كانت مقياسا من مقاييس جودة الشعر ، كما يبرز أن النقد العربى تنبه للوحدة الكلية للقصيدة ، وضرورة ارتباط أجزائها وتلاحمها . [٣]

ثم نراه يقول بعد هذا القول : ان من الخطأ الواضح أن نقيس أراءهم النقدية بمقاييس النقد الغربى فى العصر الحديث [٤]

ثالثا : من النقاد من يرى أن وحدة – القصيدة عند ابن طباطبا تقوم على الربط بين الأجزاء والملائمة بينها ، ولا يتضح عنده مفهوم لوحدة القصيدة عضوية أو موضوعية ومن هؤلاء النقاد : عبد الرحمن عثمان يقول : وكذلك لم يطف بذهن ابن طباطبا (المتوفى ٣٢٢هـ) أن يدعو الشاعر العربى إلى التزام الوحدة العضوية التى قال بها أرسطو ، بل دعاه إلى أحكام نسجها والتوفيق بين معانيها وألفاظها والتلطف فى الانفلات من معنى

---

[١] المرجع السابق : صـ١٥٧ .

[٢] عيار الشعر : صـ ، العمدة : جـ٢ ، صـ٩٤ ، لابن رشيق .

[٣] دراسات فى النقد الأدبى : صـ٨٣ .

[٤] المرجع السابق : صـ٨٥ .

إلى آخر يلائمه حتى تبدو القصيدة لقارئها كأنها كلمة واحدة : نسجا وفصاحة ، وجزالة ألفاظ ، ودقة معان وصواب تأليف .... الخ [١] .

ويؤكد هذا القول فى موضع آخر بقوله " ولكننا لم نجد فى قراءتنا حول هذا الموضوع ناقدا عربيا واحدا يقول بوجوب التزام الوحدة العضوية فى القصيدة العربية مما يدحض ادعاءات بعض المحدثين من نقاد هذا الزمن . [٢]

ومن النقاد هؤلاء يوسف بكار يقول : تلقانا عند ابن طباطبا نصوص فى تأليف الشعر ونظمه يمكن أن تدخل فى أطر الوحدة لكن أية واحدة . [٣]

وبعد استعراضه للنصوص عند ابن طباطبا فى كتابه " عيار الشعر " يعلق عليها بقوله " ولا يتضح عنده أى مفهوم لوحدة القصيدة موضوعية أم عضوية ، وهو أمر ليس غريبا على من كان يقوم بإعداد أدوات القصيدة من معان وألفاظ وبحر وقافية إعداد مسبقا ، ونظم القصيدة بيتا بيتا ، فإذا اتفق للشاعر بيت يشاكله المعنى الذى يرومه أثبته وأعمل فكرة فى شغل القوافى بما تقتضيه من المعانى على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه ، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه ، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله ، فإذا كملت له المعانى ، وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظما وسلكا لما تشتت منها .. الخ على هذا الأساس تفهم عبارات ابن طباطبا فى تأمل تأليف الشعر ، وتنسيق الأبيات والوقوف على حسن تجاورها للملائمة بينها وتفقد المصاريع لسد ثغراتها ، والتوفيق بين الأبيات والوصل بينها وصلا شكليا صناعيا ينفى ارتباطها ببعضها ارتباطا أصيلا صادرا عن فكرة أن تتعاون كل الأجزاء على إبرازها .

---

[١] مذاهب النقد وقضاياه : صـ١٦٥ ، د/ عبد الرحمن عثمان ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .

[٢] المرجع السابق : ص ١٦٣ .

[٣] بناء القصيدة فى النقد العربى القديم : صـ٢٩٣ ، د يوسف بكار .

فإذا قام الشاعر بما أوصله به ابن طباطبا يكون شعره من احسن الشعر الذى ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره .

أن الوحدة عند ابن طباطبا تقوم على الربط بين الأجزاء والملائمة بينها ، وعلى الاهتمام بالصياغة ونسج القصيدة على النحو الذى وصفه هو نفسه . [١]

ومن هؤلاء النقاد الذين قالوا أن ابن طباطبا قد انتبه إلى وحدة القصيدة بوصفه كلا يتطلب أجزاء ، وأفكارا وصورا ، السعدى فرهود " فيقول : ويراد بالوحدة فى الشعر اندماج عناصر القصيدة ، واتحاد أجزائه ، بحيث تبدو القصيدة كلا مجمعا لأجزاء مبددة ، فكأنه واحد ، وكأنه فيه وحدة [٢] .

وذلك عندما وقف على ما قاله ابن طباطبا فى الدعوة إلى وحدة القصيدة فيقول ابن طباطبا : دعا الشاعر أن يتأمل شعره ، وتنسيق أبياته .. حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا ، لا تناقض فى معانيها ، ولا وهى فى مبانيها ، ولا تكلف فى نسجها . [٣]

ويعقب على ذلك القول بقوله : " ففى تقديره أن هذا النهج الذى يدعو إليه لا يتناقض التزام عمود الشعر الجاهلى . [٤]

وخلاصة القول فى وحدة القصيدة عند ابن طباطبا أنه يعد من أوائل النقاد العرب القدامى الذين دعوا إلى وحدة القصيدة وانتبهوا إليها وهذا أمر فرضه عليه منهجه العام فى تأليف القصيدة وصناعتها ، فهو قبل أن يكون ناقدا ، كان شاعرا ، ومن المرجح أن يكون قد عمل بهذا المنهج ، فإنه يراه ضروريا للشاعر وذلك من أثر ممارسته لنظم الشعر .

---

[١] المرجع السابق : صـ٢٩٥ .

[٢] قضايا النقد الادبى الحديث : صـ٩٦ ، د/ محمد السعدى فرهود ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م ، دار الطباعة المحمدية .

[٣] عيار الشعر ، ص٢٠٩ .

[٤] قضايا النقد الأدبى الحديث : صـ١٠١ .

وأن وحدة القصيدة عنده لا تقاس بمقاييس التركيب العضوى أو الموضوعى فهو يدعو إلى الترابط بين الأبيات فى صورة طبيعية وثيقة الحلقات بحيث لا تستطيع أن تنزع بيتا من مكانه إلى مكان آخر وأن تسقطه ، ولو أنك فعلت ذلك لاختلت صورة الكلام خللا واضحا وأحدثت فجوة وانقطاعا بين أجزائه أليس هو القائل : واحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ما يتسق به أوله مع آخره على ما يتسقه قائله ، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب وإذا نقص تأليفها . (١)

وأن وحدة القصيدة عنده لها أصول ومقاييس قد تكون أشق وأدق من هذه الوحدة التى يدعونها بالوحدة الموضوعية أو العضوية .

وهو لم يقل بأى منهما فعنده لا مانع من تعدد الموضوع فى القصيدة فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل ، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه – على تصرفه فى فنونه– صلة لطيفة فيتخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ، ومن الشكوى إلى الاستماحة ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافى والنوق .. بألطف تخلص واحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثانى عما قبله ، بل يكون متصلا به ، وممتزجا معه . (٢)

ففى هذا النص يبدو لنا إدراك واضح من ابن طباطبا لطبيعة هذه الوحدة فى الشعر التى تقوم على الربط بين الأجزاء والملائمة بينها ، وعلى الاهتمام بالصياغة ونسج القصيدة .

لعل لصوق صفة العضوية بوحدة القصيدة استمدها النقاد من كلام أرسطو من مقارنته بوحدة العمل المسرحى بالكائن العضوى الحى . (٣)

---

(١) عيار الشعر : صـ٢١٣ .

(٢) المرجع السابق : صـ٩ .

(٣) النقد الأدبى الحديث : صـ٦٨ ، د/ محمد غنيمى هلال ، دار نهضة مصر للطبع والنشر

وأن " الوحدة العضوية " كما يقول عبد الرحمن عثمان : غريبة عن القصيدة العربية ولا تتفق وطبيعة الشعر الغنائى ، وهى لم تعرف هذا النوع من الوحدة إلا حين استنبت الشاعر أحمد شوقى فى دوحة الشعر العربى غصنا جديد بتأليف مسرحياته الرائعة . [١]

ويقول أيضا :

والغريب أيضا أننا لم نلمس هذه النزعة الخبيثة إلا فى مطالع هذا القرن حين أشتد الاتصال بين أوربا والشرق وحين اتجه الشباب العربى إلى الآداب الغربية . [٢]

ويتساءل محمد نايل " ولست أفهم لم يخالف هذا النقد الحديث رأى أرسطو ، ويضع الشعر الغنائى تحت ثقل هذه الوحدة العضوية ، بينما أعفاه أرسطو من هذا الثقل وقيوده .. ؟ [٣]

ويقول أيضا : أن القصيدة فى الشعر الغنائى لا ينبغى أن تدعى لهذه الوحدة التى يفرضها عليها هؤلاء العضويون ، وإذا كان الشعر الغنائى – كما يقولون – هو تصوير مشاعر الإنسان نحو الطبيعة ومجاليها ، والحياة وأسرارها ، والأيام وأحداثها ، والمجتمعات وأحوالها فإن شيئا من ذلك لا يعرف قانون الوحدة العضوية حتى نلزم هذا الشعر بمحاكاة شئ غير موجود . [٤]

كما يبدو لنا إدراك ابن طباطبا للفرق بين طبيعة الوحدة فى الشعر وبينها فى النثر الرسائل الخطب – فهى وحدة تسرى بين أبيات القصيدة كلها وتمتد– فى تشابك وتداخل – حتى نهاية القصيدة ولكنها – فى النثر ليست بمثل هذه الوثاقة والقوة إذ تتمثل فى التأليف بين فصول الرسائل ، أو أجزاء الخطب .

---

[١] مذاهب النقد وقضاياه : صـ١٦٥ .

[٢] المرجع السابق : صـ١٦٠ .

[٣] اتجاهات وآراء فى النقد الحديث : ص ٥٢ ، د/ محمد نايل .

[٤] المرجع السابق : صـ٥٤،٥٥.

وهذا ما يوقفنا على الإدراك الواعى لدى ابن طباطبا ، لبناء القصيدة من حيث أنه بناء فنى مترابط تترابط أجزاؤه وتتفاعل عناصره ، وتتجانس ألفاظه وتنمو أفكاره داخل سياق لغوى واحد .

ولم تقف جهود " ابن طباطبا " عند هذا التصور النظرى لوحدة القصيدة ، وإنما اهتم بإصدار التوجيهات العملية التى تكفل للشعراء تحقيق هذه الوحدة فيقول ، وينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره ، وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ، ويتصل له كلامه له فيها . (١)

وهذا يوضح مدى حرص " ابن طباطبا " على وحدة القصيدة ونموها ، وفاعلية أجزائها وتآزر هذه الأجزاء فى خدمة المعنى .

وعنده أن احتواء القصيدة الواحدة على بعض المواقف الشعرية كالمدح ، والغزل ، والشكوى ، وتنقل الشاعر بينها لا يفصم عرى وحدة القصيدة وإنما هى بمثابة خواطر وجدانية منبثة فى مقدمة القصيدة ومرتبطة ارتباطا وثيقا بمشاعر الشاعر ، وإن تعدد هذه المشاهد فى القصيدة الواحدة يصدر عن رؤية شعورية موحدة ، ومن ثم لا تتنافى مع الوحدة ، لأن كل معنى متصل بما يليه غير منفصل عنه ، وهو ما عبر عنه النقد الحديث بالوحدة النفسية .

ولعلى بهذه الدراسة أكون قد وفقت إلى رسم صورة كاملة عن وحدة القصيدة عند ابن طباطبا ، تكشف عن محاولاته الأولية فى إرساء حجر الأساس فى هذه القضية .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل

د/ على جاد الحق سعيد

---

(١) عيار الشعر صـ٢٠٩

(مراجع البحث)

١) أسس النقد الأدبى عند العرب : د/ أحمد أحمد بدوى ، دار نهضة مصر

٢) بناء القصيدة فى النقد العربى القديم : د/ يوسف بكار ، دار الأندلس .

٣) البلاغة تطور وتاريخ : د/ شوقى ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة .

٤) البيان والتبيين : جـ١ ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى، الطبعة الخامسة ، سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٥) دراسات فى الشعر والمسرح : د/ مصطفى بدوى ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة، ١٩٦٠م .

٦) دراسات فى النقد الأدبى : د/ كامل السوافيرى ، مكتبة الوعى العربى ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

٧) الشعر الجاهلى : جـ٢ ، د/محمد النويهى ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة .

٨) الشعر والشعراء : جـ١ ، لابن قتيبة تحقيق أحمد شاكر ، دار المعارف .

٩) الشفاء لابن سينا تحقيق : د/ عبد الرحمن بدوى ، طبعة ١٩٤٦م .

١٠) الصناعتين لابن هلال العسكرى .

١١) عيار الشعر لابن طباطبا : تحقيق د/ عبد العزيز المانع ، مكتبة الخانجى مصر .

١٢) فى الأدب والنقد : د/ محمد مندور ، لجنة التأليف والنشر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٦٨هـ ١٩٤٦م .

١٣) قضايا النقد الأدبى : د/ بدوى طبانة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د.ت .

١٤) قضايا النقد الأدبى الحديث : د/ محمد السعدى فرهود ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

١٥) قضية الشعر الجديد : د/ محمد النويهى .

١٦) كتاب أرسطوطاليس فى الشعر : ترجمة متى بن يونس ، تحقيق شكرى عياد ، الفكر العربى ، ١٩٦٧م .

١٧) الشعر لارسطو : ترجمة عبد الرحمن بدوى .

١٨) مذاهب النقد وقضاياه : د/ عبد الرحمن عثمان ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .

١٩) من النقد والأدب : " المجموعة الخامسة ، " د/ أحمد أحمد بدوى ، دار نهضة مصر ١٩٦٥ .

٢٠) من الوجهة الأدبية : جـ١ ، د/ السيد تقى الدين ، دار إحياء الكتب العربية ، د.ت .

٢١) النقد الأدبى الحديث : د/ محمد غنيمى هلال – نهضة مصر .

٢٢) النقد الأدبى عند العرب د/ محمد طاهر درويش – مكتبة الشباب .

٢٣) النقد الأدبى عند اليونان : د/ بدوى طبانة ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م .

٢٤) النقد والنقاد المعاصرون : د/ محمد مندور ، نهضة مصر .

٢٥) نظرية الشعر فى النقد العربى القديم : د/ عبد الفتح عثمان ، مكتبة الشباب .

٢٦) نظرية النقد الأدبى : د/ عصام قصبجى ، دار العلم العربى .

٢٧) النابغة الذبيانى عمر الدسوقى : نهضة مصر .

٢٨) اتجاهات و أراء فى النقد الحديث : د/ محمد نايل .

٢٩) الوساطة للجرجانى – تحقيق هاشم الشاذلى دار أحياء الكتب العربية .

*****